

فصل فى نسبه

نسب أبى العلاء:

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم ابن أرقم بن النعمان بن عدى بن غطفان بن عمرو بن بريخ بن خزيمه بن تميم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة التنوخى المعرى. هكذا ساق نسبه ابن خلكان، وهو أصح ما وجدناه بالمعارضة على ما فى كتب الأنساب، فإن فيما ذكره ياقوت فى إرشاد الأريب إسقاطاً لبعض الأسماء، واضطراباً فى ترتيب بعضها، فاعتمدنا على رواية ابن خلكان بعد تصحيح ما حرف منها، فإن خزيمه بن تميم الله جاء فى النسخة المطبوعة - ببولاق: جذيمة بالجيم والذال المعجمة. وما نص عليه فى كتب اللغة والأنساب خزيمه بالخاء والزاي مصغراً وتيم الله بن أسد هكذا فى جميع ما وقفنا عليه من الكتب، وجاء به أبو العلاء فى "سقط الزائد" تيم اللات، فى قوله:

سألته قبل يوم السير مبعثه إليك ديوان تيم اللات ماليتا

وقد يكون هذا تحريقاً فى النسخة إلا أن من خبر شعر أبى العلاء، ومذهبه فى تكلفه الصناعة والتجنيس، رجح أنه ما أتى بقوله ما لیت، أى ما نقص بعد قوله اللات، إلا إرادة للتجنيس. والله أعلم. وقد يذهب الظن إلى أن تيم اللات هذا ربما كان غير: تيم الله المذكور مقدماً، وهو مردود بما ذكره الشارخ فى سياقه نسبه عند شرح البيت. على أن فيما ذكره ابن خلكان ما لا

يسكت عنه أيضاً، وما نقلناه عنه هو ما وجدناه في النسخة المطبوعة ببولاق،
والنسخة المطبوعة بباريس. ونقل ابن الوردي في تاريخه عبارة ابن خلكان
فأسقط أحمد بن سليمان من سلسلة النسب ويوافقه ما في "الكوكب الثاقب"
لعبد القادر بن عبد الرحمن السلوي إلا أنه أسقط محمد ابن سليمان بدل
أحمد.. وعلى كل حال فالظاهر أن ما ورد في ابن خلكان فيه زيادة اسمين
ربما سبق بهما قلم الناسخ.

وجده الأعلى قضاة بن مالك أبو وحى من اليمن ينتهى نسبه إلى
قحطان هذا هو المشهور وزعم نساب مضر أنه قضاة بن معد بن عدنان، وأن
مالكا زوج أمه، والنسب إلى زوج الأم عادة معروفة عند العرب، ولعلماء
الأنساب فى ذلك اختلاف كثير، ولهذا قال محمد بن سلام البصرى النسابة لما
سئل: أنزار أكثر أم اليمن؟ فقال: إن تعددت قضاة فنزار أكثر، وإن تيمنت
فاليمن. وعلى القول الأول قول بعضهم:

قضاة بن مالك بن حمير النسب المعروف غير المنكر
وعلى القول الثانى قول الكميت الأسدى يخاطب قضاة:

فإنك والتحول عن معد كحالية تزين بالعطول
تغايظ بالتعطل جارتها وبالأحماء تبدأ والحليل
فمهلا يا قضاة لا تكونى كقدح خر بين يدي مجيل
وما من تهتفين به لنصر بأقرب جابة ألك من هديل

وسمى قضاة لانقضاعه عن قومه مع أمه، أى انقطاعه عنهم، أو من
قضعه، أى قهره. وقيل بل هو اسم منقول، وأصل القضاء الفهد.

والتنوحى نسبة إلى تنوح كصبور، وتشديد النون خطأ، وهم قبيلة من اليمن من قضاة، سموا بذلك لأنهم اجتمعوا وتحالفوا، وتنخوا بمكان فى الشام أى أقاموا فيه، ومن الناس من يطلق تنوخ على الضجاعة ودوس الذين تنخوا بالبحرين، والاختلاف فى ذلك كثيراً أيضاً. ونقل عن أبى عبيد أنهم تنخوا على مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد، وعلى مالك بن فهم عم مالك بن زهير. وذكر الحمدانى أن المعرة من بلاد الشام هى صليبية تنوخ، بمعنى أن بها جمعهم المستكثر. وفى "إرشاد الأديب". لياقوت أن تيم الله بن أسد هو مجتمع تنوخ من أهل معرة النعمان.

وقال أبو يعقوب النحوى فى شرح "سقط الزند" أن تيم الله هو مجتمع تنوخ فى النسب؛ ولم يخص أهل المعرة. ويوافق ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان، إلا أن أبا يعقوب سماه تيم اللات كما قدمنا. وكان شعار تنوخ فى حروبهم (واصل واصل) وإليه أشار أبو العلاء فى لزومياته بقوله:

فر من هذه البرية فى الأرض فما غير شرها لك حاصل
فشعارى قاطع وكان شعاراً لتنوخ فى سالف الدهر واصل
والشعار: العلامة فى الحرب، وفى الحديث أن شعاراً أن أصحاب
رسول الله ﷺ كان فى الغزو: (يا منصور أمت أمت) وهو تفاؤل بالنصر بعد
الإماتة. واستشعر القوم إذا تداعوا بالشعار فى الحرب.

والمعرى نسبة إلى معرة النعمان، وهى بلدة الشام من أعمال حمص بين حلب وحماة، وليست منسوبة للنعمان بن المنذر كما توهمه بعضهم، بل نسبت فيما ذكر للنعمان بن بشير الأنصارى، لأن ولدأ له مات وهو مجتاز بها، فدفنه فيها وأقام أياماً حزينا، فنسبت إليه لذلك. قال ياقوت فى معجم

البلدان. وهذا فى رأى ضعيف لا تسمى بمثله مدينة، والذى أظنه أنها مسماة بالنعمان الملقب بالساطع. قلت وهو النعمان بن عدى، أحد أجداد المعرى المذكورين فى نسبه، والذى ذكره ياقوت مقبول. فإن تسمية بلدة باسم أحد قطانها المشهورين فيها أقرب من تسميتها بأحد المجتازين بها. وذهب الشريشى فى شرح المقامات إلى أنها أضيفت لجبل مطل عليها اسمه النعمان، ولم يذكر ياقوت هذا الجبل.

ومن شعر أبى العلاء فىمن غيره باسم بلده:

يعيرنا لفظ المعرة إنها من العر قوم فى العلا غرباء
وهل لحق التثريب سكان يثرب من الناس، لا، بل فى الرجال غباء
وذو نجب إن كان ما قيل صادقاً فما فيه إلا معشر نجباء

أى إن كان اسم البلد له تأثير على ساكنيه، على ما زعم هؤلاء الزاعمون فىلزم منه أن التثريب لاحق "لسكان يثرب، وهى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام. ويلزم منه أيضاً أن يكون سكان ذى نجب كلهم نجباء، مع أن فىهم النجيب وغير النجيب كسائر سكان البلاد.

ومن شعره فى اسمه:

وأحمد سمانى كىبرى وقلماً فعلت سوى ما استحق به الذما

وقال أيضاً:

رويدك لو كشفت ما أنا مضمّر من الأمر ما سميتنى أبداً باسمى
أظهر جسمى شاتياً ومقيظاً وقلبى أولى بالطهارة من جسمى

وقال فى كنهه :

عرفتك جيداً يا أم دفر
وما إن زلت ظالمة فزولى
دعت أبا العلاء وذاك ممين
ولكن الصحيح أبو النزول
يقول ذلك جريئاً على عادته فى الخمول والتواضع .

وقد خلط بعض العصريين بين أبى العلاء المعرى، وأبى العلاء صاعد اللغوى، لاتفاقهما فى الكنية واشتهار كليهما باللغة، فنسب للمعرى كتاباً اسمه النصوص فى قصة ساقها، وإنما هو لصاعد وسيأتى تفصيل ذلك فى فصل مؤلفاته .

فصل فى بيئته

أسرة المعرى وبيئته

كان أبو العلاء من بيت علم وقضاء، ورياسة وثناء. تولى جماعة من أهله قضاء المعرة وغيرها، ونبغ منهم قبله وبعده كثيرون رأسوا وساسوا، وكان فيهم الكاتب والشاعر. ولأهل المعرة اعتقاد كبير فيهم، ولواذ بهم، وفزع إليهم فى أمورهم. وذكروا أن كمال الدين بن العديم عقد فصلا لتراجمهم وأخبارهم فى كتابه: "دفع التحرى عن أبى العلاء المعرى" إلا أنى لم أظفر بهذا الكتاب مع كثرة بحثى وتنقيبى عنه، فاعتمدت فى أكثر ما أذكره هنا على ما فى "إرشاد الأريب" لياقوت. و"الكوكب الثاقب"، لعبة القادر بن عبد الرحمن السلوى، وتركت كثيراً منهم لعدم تحققى من صحة أنسابهم وألقابهم، بسبب تحريف النسخ.

فمنهم "جده الأدنى سليمان بن محمد أو أحمد" الشهير بقاضى المعرة وولى أيضاً القضاء بحمص، وبها مات سنة ٢٩٠هـ وكان أبوه شاعراً. "عمه أبو بكر محمد بن سليمان" ولى القضاء بعد أبيه، وفيه يقول الصنوبرى.

بأبى يا ابن سليمان
وهم السيادة شبانا
أدرك البغية من أض
وإراداً عندك نيلا
ن لقد سدت تنوخا
نالعمرى وشيوخا
حى بناديك منيخا
وفرأناً وبليخا^(١)

(١) النيل بمصر، والفرات بالعراق، وبليخ - بفتح فكسر: نهر الرقة.

واجداً منك متى استصم رخ للمجد صريخا
في زمان غادر الهمم ات في الناس مسوخا
" أبو عبد الله بن سليمان " ولي القضاء بعد أخيه محمد بن سليمان،
وتوفى بحمص سنة ٣٧٧هـ. ومن شعره في رثاء والده:

إن كان أصبح من أهواه مطرحاً بياب حمص فما حزني بمطرح
لو بان أيسر ما أخفيه من جزع لمات أكثر أعدائي من الفرح
ورثي أبو العلاء والده بقصيدة نونية أو لها:

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن فما جادني إلا عبوس من الدجن
وسنورد مختارها عند الكلام على منظومه.

" أخوه أبو المجد بن عبد الله بن سليمان " كان أسن من أبي العلاء،
ومن شعره في الزهد:

كرم الهيمن منتهى أملى لا نيتى أجر ولا عملى
يا منفصلا جلت فواضله عن بغيتى حتى انتهى أجلي
كم قد أفضت على من نعمم كم قد سترت على من زلل
إن لم يكن لى ما ألوذ به يوم الحساب فإن عفوك لى

" أخوه أبو الهيثم عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان " كان شاعراً كأبيه
وأخويه أبي المجد وأبي العلاء، ومن شعره:

قالوا نراه سلا لأن جفونه ضنت عشية بيننا بدموعها
ومن العجائب أن تفيض مدامع نار الغرام تشب في ينبوعها

وله فى الشمعة:

وذات لون كلونى فى تغيره وأدمع كدموعى فى تحدرها

سهرت لىلى وباتت لى مسهرة كان ناظرها فى قلب مسهرها

قلت: ومهما قيل فى الشمعة، فليس لقصيدة القاضى ناصح الدين الأرجانى ضرب فى هذا الباب، فقد بز بها من تقدمه واعياً من بعده إذ يقول:

نمت بأسرار ليل كان يخفيها . وأطلعت قلبها للناس من فيها

سفيهة لم يزل طول اللسان لها فى الحى يجنى عليها ضرب هاديتها

غريقة فى دموع وهى تحرقها أنفاسها بدوام من تظيها

تنفست نفس المهجورة أدكرت عهد الخيط فبات الوجد يكيها

يخشى عليها الردى مهما ألم بها نسيم ريح إذا وافى يحييها

كأنها غرة قد سال شارحها فى وجه دهماء يزهاها تجليها

أو ضرة خلقت للشمس حاسدة فكلما حجت قامت تحاكيها

لها غرائب تبدو من محاسنها إذا تفكرت يوماً فى معانيها

فالوجنة الورد إلا فى تناولها والقامة الغصن إلا فى تثنيها

صفر غلاتها حمر عمائها سود ذوائبها بيض لياليها

تحمى الليالى نوراً وهى تقتلها بشس الجزاء لعمر الله تجزيها

ولولا خلاف الإطالة لذكرتها بتمامها لغرابتها.

وأتى بعد أبي العلاء جماعة ذكر منهم ياقوت ثمانية أسماء، وأضرب
عن ذكر غيرهم اختصاراً، وغالبهم تولوا القضاء بالمعرة، وكفر طاب وحماة،
ومنهم من تولى ديوان الإنشاء.

وإنما تركت ذكرهم لما قدمت من تحريف أسمائهم فى النسخة.

فصل فى مولده ووفاته وحليته

مولده وصفته

ولد يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣هـ. وعمى بالجدري أول سنة ٣٦٧. غشى يمينه عيينه بياض، وذهبت اليسرى جملة. وكان يقول لا أعرف من الألوان إلا الأحمر لأنهم ألبسونى حين جدرت ثوباً معصفاً، لا أعقل غير ذلك. وقال فى إحدى رسائله إلى داعى الدعاء: (وقد علم الله أن سمعى ثقيل، وبصرى عن الإبصار كليل، قضى على وأنا ابن أربع، لا أفرق بين البازل^(١) والربع^(٢))، فلا وجه إذا لمن زعم أنه ولد أكمه.

وحكى السلفى عن أبى محمد الإياد أنه دخل مع عمه على أبى العلاء يزوره فرآه على سجادة لبد وهو شيخ. قال: فدعانى ومسح على رأسى وكنت صبيّاً، وكأنى أنظر إليه الساعة وإلى عيينه إحداهما بارزة والأخرى غائرة جدّاً، وهو مجدر الوجه نحيف الجسم.

ونقل الثعالبى عن المصيصى الشاعر، قال: رأيت بمعة النعمان عجباً من العجب، رأيت أعمى شاعراً نظيفاً يلعب بالشطرنج والنرد، ويدخل فى كل فن من الجدل والهزل، يكنى أبا العلاء، وسمعته يقول: أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر.

(١) البازل من الجمال الذى بلغ تسع سنين، وليس بعده سن تسمى.

(٢) والربع - كصرد: الفصيل يتج فى الربيع، وهو أول التناج، فإذا نتج فى آخر التلج فهو: هبع، ومراد أبى العلاء: لا أفرق بين الكبير والصغير.

قال الشيخ عبد الغنى النابلسى فى رحلته الكبرى المسماة بالحقيقة والمجاز فى رحلة الشام ومصر والحجاز، وعند كلامه على القدس وما فيها: " ودخلنا إلى المدرسة المسماة بالفخرية، وهى فى غاية من الحسن والإتقان، وكمال البهاء وكمال البنيان وفيها جملة من الكتب، ورأينا فيها ديوان أبى العلاء المعرى وشرحه، ورأينا هناك مكتوبًا له هذين البيتين وهما قوله:

قالوا العمى منظر قبيح قلت بفقدى لكم يهون (١)
والله ما فى الأنام شىء تأسى على فقده العيون
ويناسبه قوله أيضاً:

أبا العلاء يابن سليمان إن العمى أولاك إحسانا
لو أبصرت عيناك هذا الورى ما أبصرت عيناك إنسانا

انتهى كلام الشيخ. والبيتان الأولان قد اختلفوا فى قائلهما، فنسبهما الصفدى فى شرح لأمية العجم ج، ص ٢٨٤ لأبى العلاء كما ذكر الشيخ، ولكن روايته (ما فى الوجود) بدل (ما فى الأنام).

ونسبهما الشريشى فى شرح المقامات لبشار بن برد، وروايته (ما فى البلاد) ونسبهما الوطوط (فى الغزر والعرر ص ١٦١) لأبى العيلاء، وروايته (والله ما فى الأنام حر) والله أعلم والبيتان لم أجدهما فى شعر أبى العلاء، ولعلهما من شعره المفقود:

فإن قيل: كيف يحمد الله على العمى، وهو القائل فى عكسه يتمنى الإبصار:

(١) المغرب لابن سعيد ١٨، تاريخ آخر من ٩١: قالوا العمى منظر قبيح الخ نسبها لمتصور ابن إسماعيل الفقيه.

فليت الليالى سامحتنى بناظر يراك ومن ولى بالضحى فى الأصائل
 فلو أن عيني متعتها بنظرة إليك الأمانى ما حلمت بنائل
 قلنا: ليس هذا من التناقض فى شىء، ولكن مقام مقال لأنه أبان فى
 الأول عن مذهبه ورأيه فى الوجود " وجرى فى الثانى على طريقة الشعراء فى
 مدائحهم إذ كان المقام يقتضيه . ومن هذا تلعم فرق ما بين شعرية فى " سقط
 الزند واللزوميات لاختلاف المقامين وتباين الوجهتين: وإن صحت نسبة البيتين
 السابقين لأبى العيناء كما ذكر الوطواط، فقد جرى على مثل هذا أيضاً فى
 قوله للمتوكل وقد سأله عن أصعب مر عليه فى فقد بصره فقال له: فقدى
 لرؤيتك يا أمير المؤمنين .

ومن قول أبى العلاء فى عماء، وهو مما رواه له الصفدى:

سواد العين زار سواد قلبى لتفقا على فهم الأمور

يشير بذلك إلى أن العميان عوضوا عن البصر الذكاء وسرعة الخفظ،
 وقريب منه من ينسب لسيدنا عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما وكان
 أصيب فى بصره فى آخر عمره:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففى فؤادى وقلبي منهما نور^(١)

قلبي ذكر وعقلي غير ذى دخل وفى فمى صارم بالقول مشهور

وغاية الغايات فى هذا الباب قول بشار بن برد فىمن عيره بالعمى، وإن
 كان من غير هذا المعنى:

(١) فى إرشاد الأديب ج ٧ - آخر ص ٧٠: نسبهما .. لأبى العيناء.

وعيرنى الأعداء والعيب فيهم وليس بعار أن يقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والتقى فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة وإنى إلى تلك الثلاث فقير

ومن طرائف أبى العلاء أنه لما فرغ من تصنيف كتابه اللامع العزيزى فى شرح ديوان المتنبى، وقرئ عليه، أخذ الجماعة فى وصفه، فقال: كأنما نظر المتنبى إلى بلحظ حيث يقول:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمنت كلماتى من به صمم

وكان أبو حزم مكى بن زياد المقرئ الضرير الملقب - بصائن الدين يتعصب لأبى العلاء، ويضطرب إذا قرئ عليه شعره للجامع بينهما من العمى والأدب، فسلك مسلكه فى النظم: كذا ذكرنا بن خلكان نقلاً عن ابن المسترفى.

وفاته:

وتوفى رحمه الله يوم الجمعة، ثالث وقيل ثانى وقيل ثالث عشر ربيع الأول سنة ٤٤٩هـ بالمعرة^(١) فى خلافة القائم العباسى، وله من العمر نحو ست وثمانين سنة، ومرض ثلاثة أيام، ولم يكن عنده غير بنى عمه، فقال لهم فى اليوم الثالث: اكتبوا عنى، فتناولوا الدوى والأقلام، فأملى عليهم غير الصواب، فقال لهم القاضى أبو محمد عبد الله التنوخى:

أحسن الله عزائكم فى الشيخ فإنه ميت. فمات من غده، ودفن فى ساحة من دور أهله. قال القفطى:

(١) فى تاريخ ابن الشحنة بحاشية الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٦١: وفاة أبى العلاء وشى من خبره.

أتيت قبره سنة خمسين وستمائة، فإذا هو فى ساحة من دور أهله وعليه باب، فدخلت فإذا القبر لا احتفال به، ورأيت عليه خبازى يابسة. والموضع على غابة ما يكون من الشعث والإهمال.

وقال الذهبى: وقد رأيت قبره بعد مائة سنة من رؤية القفطى، فرأيت نحواً مما حمى انتهى. ويقال إنه أوصى أن يكتب عليه:

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

ونقل الصفدى عن خط علاء الدين الوداعى قال. زرت قبره بالمعرة رحمه الله تعالى فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وستمائة، ولم أر عليه شيئاً من ذلك، وقد دثر ولصق بالأرض، وعملت هذين البيتين:

قد زرت قبر أبى العلاء المرتضى لما أتيت معرة النعمان^(١)
رسألت من غفر الخطايا أنه يهدى إليه رسالة الغفران

قلت: وقبره معروف إلى اليوم أى سنة ١٣٢٧ بالمعرة، ولأهلها اعتقاد كبير فيه، ويزعمون أن الماء إذا بيت فى قارورة عند قبره، وشربه فى الغد صبى به حبسة فى لسانه، أو بلادة فى ذهنه، زال ذلك عنه ببركة أبى العلاء.

ونقل ياقوت فى "إرشاد الأريب" عن ابن الهبارية، أن السبب فى وفاة أبى العلاء مكاتبات جرت بينه وبين أبى نصر بن أبى عمران داعى الدعاة بمصر، دعت إلى الأمر بإحضاره إلى حلب، ووعدته على الإسلام خيراً من بيت المال، فلما علم أنه يحمل - للقتل أو الإسلام - سم نفسه فمات. قال ياقوت: وقد ظفرت بتلك الرسائل، فلم أجد بها ما يدل على ما ذهب إليه

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٨: معرة حمص هى معرة النعمان نسبت إليه بعد ذلك.

ابن الهبارية . انتهى . وأقول : هذه الرسائل هي التي لخصها ياقوت في كتابه المذكور، وقد ظفرت بها أنا أيضاً، وهي عندى تامة في نسخة مخطوطة، وليس فيها شيء من ذلك . وبعد فأى إسلام كان يريده منى داعى الدعاة، وهو رئيس الباطنية فى الدولة الفاطمية، والداعى إلى مذهبهم، ونحلة القوم معروفة لا تحتاج لبيان . ومن راجع دعواتهم فى خطط المقرئزى علم كيف كانوا يأخذون الداخل فى مذهبهم بتكشيكه فى دينه أولاً، ثم الخروج به رويداً رويداً من الإسلام، حق ينتهوا به إلى الإلحاد . فهل كان ما عليه هؤلاء القوم هو الإسلام فى نظر ابن الهبارية حتى يتبجح بهذه الدعوى؟؟

وكان رحمه الله قصير القامة، نحيف الجسن ضعيفه، مشوه الوجه بآثار الجدري، ومنى فى آخر عمره بالإقعاد، ولما مات خم عنده قبره فى أسبوع واحد مائة ختمة، وفى رواية مائتان، واجتمع عليه خلق كثير، وأنشد أربعة وثمانون شاعراً مرثيهم فيه . منها قصيدة طويلة لتلميذه على بن همام، يقول فيها:

إن كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد أرقى اليوم من جفنى دما
سيرت ذكرى فى البلاد كأنه مسك تضحخ منه سمعاً أو فما
وترى الحجيج إذا أداروا ليلة ذكراك أوجب فدية من أحرمًا

قال ياقوت : كأنه يقول إن ذكرى طيب والطيب لا يحل للمحرم، فتجب عليه فدية . ورثاه أبو الرضى عبد الرحمن بن نوت المعرى بقصيدة نذكر منها ما وقفنا عليه فى " الكوكب الثاقب " لعبد القادر السلوى، وهو:

سمر الراح وبيض الهند تشتمر فى أخذ تأرك والأقدار تعتذر

والدهر فاقد أهل العلم قاطبة
فهل ترى بعد دار العلم عالمة
والعلم بعدك علم فات منصله
ورثاه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة المعري بقوله:

والعلم بعد أبي العلاء مضيع
أودى وقد ملأ غرائبها
ما كنت أعلم وهو يودع في الثرى
جبل ظننت وقد تزعزع ركنه
وعجبت أن تسع المعرة قبره
لو فاضت المهجات يوم وفاته
تصرم الدنيا وتأتى بعده
لا تجمع المال العتيق
وإن استطعت فس بسيرة أحمد
رفض الحياة ومات قبل مماته
عين تسهد للعفاف وللتقى
شيم تجمله فهن بلحده
جادت ثراك أبا العلاء غمامة
ما ضيع الباكي عليك دموعه

كأنهم بك في ذا القبر قد قبروا
أن قد تزعزع فيها الركن والحجر
والفهم بعدك قوس ماله وتر
عبد الله بن أبي حصينة المعري بقوله:
والأرض خالية الجوانب بلقع
تسرى كما تسرى النجوم الطلع
أن الثرى فيه الكواكب تودع
أن الجبال الراسيات تزعزع
ويضيق بطن الأرض عنه الأوسع
ما استكثرت فيه فكيف الأدمع
أمم وأنت بمثله لا تسمع
من قبل تركك كل شيء تجمع
تأمن خديعة من يغر ويخدع
متطوعا بأبر ما يتطوع
أبدأ وقلب للمهمين يخشع
تاج ولكن بالثناء يرصع
كندى يديك ومزنة لا تقلع
إن الدموع على سواك تضيع

قصدتك طلاب العلوم ولا أرى للعلم باباً بعد بابك يقصر
مات النهى وتعطلت أسبابه وقضى التأدب والمكارم أجمع

فصل فى نشأته وطلبه العلم ورحلته

نشأ بالمعرة، وأخذ النحو واللغة عن أبيه، وعن محمد بن عبد الله بن سعد النحوى بحلب، وحدث عن أبيه وعن جده. ثم رحل إلى بغداد، فسمع من عبد السلام بن الحسين البصرى. هكذا ذكر السيوطى فى "بغية الوعاة" قال: وقد أسندنا حديثه فى الطبقات الكبرى، وله ذكر فى "جمع الجوامع" وذكر غيره أن أبا العلاء لما قدم بغداد، قصد أبا الحسن على بن عيسى الرعبى ليأخذ عنه، فلما أراد الدخول عليه، قال الرعبى: ليدخل الإصطبل؛ فخرج مغضباً ولم يعد إليه. والإصطبل بلغة أهل الشام الأعمى. قلت: وهى لفظة معربة، ذكرها الخفاجى فى "شفاء الغليل" قال: ولذا قال ابن عباد: جروا الإصطبل فى قصته مع المعرى. ولعل الخفاجى أراد المرتضى، ووهم فذكر ابن عباد. وستأتى القصة.

وذكر أبو الفداء أنه دخل بغداد واستفاد من علمائها، ولم يتلمذ لأحد أصلاً، وهو يخالف ما ذكره السيوطى وابن خلكان وغيرهما. وكان قد رحل أولاً إلى طرابلس، وبها خزائن كتب موقوفه؛ فأخذ منها ما أخذ من العلم. ثم رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ فأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم رجع إلى المعرة وأقام بها إلى وفاته. وقول ابن خلكان إنه دخل بغداد سنة ٣٩٨، ودخلها ثانياً سنة ٩٩. وأقام بها سنة وسبعة أشهر، لا يستقيم مع ما سيرد عليك فى فصل مؤلفاته، من تصريحه عن نفسه أن رجوعه إلى المعرة ولزومه منزله كان سنة ٤٠٠.

وقبل قدومه إلى المعرة بمدة يسيرة ماتت أمه، وأصيب فى مال لهن

فرثاها بقصيدة ميمية طويلة، وأخرى بائية، وكتب إلى بغداد صديقه وتلميذه
القاضي أبا القاسم على المسحن التنوخي بقصيدة ضمنها أغراضاً يقول فيها
معتذراً عن مفارقتة العراق:

أثارتني عنكم أمـرآن والدة

لم ألقها وثالاً عاد مسفوتاً^(١)

أحياهما الله عصر البين ثم قضى

قبل الإياب إلى الذخرين أن موتا

لولا رجاء لقائهما لما تبعت

عسى دليلاً كسر الغمد أصليتنا^(٢)

ولا صبحت ذئاب الإنس^(٣) طاوية

تراقب الجدى في الخضراء مسبوتاً^(٤)

ولما استقر بالمعره لزم داره، وشرع في التصنيف والإفادة، وأخذ عنه
الناس، وقصده الطلبة من الآفاق، وكتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار،
وسمى نفسه: "رهن المحبسين" يعنى حبس نفسه في المنزل، وحبس بصره
بالعمى.

(١) المسفوت: القليل البركة.

(٢) الإصليت: الماضي الصقيل.

(٣) يريد بذئاب الإنس: اللصوص.

(٤) المسبوت: من السبات، وهو التعاس.

وما فتئ وهو بعيد عن بلده، يحن إليه ويشتاقه، ويذكره فى شعره،
وفيه يقول:

سرى برق المعرة بعد وهن فبات برامة يصف الكلالا
شجا ركبًا وأفراسًا وإبلًا وزاد فكاد أن يشجوا الرحالا
بها كانت جهادهم مهاري وهم مردًا وبزلهم فصالا
وقال:

فيما برق ليس الكرخ دارى وإنما رماني إليه الدهر منذ ليالى
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال
وقال أيضًا:

متى سألت بغداد عنى وأهلها فإنى عن أهل العواصم سأل
وماء بلادى كان أبجع مشريًا ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال
على أنه لما أزمع الرحلة من بغداد، عز عليه فراقها، وفراق أودائه فيها،
فقال من قصيدة يجيب بها على النهاوندى:

وردنا ماء دجلة خير ماء وزنا أشرف الشجر النخيلا
وزلنا بالغليل وما اشتفينا وغاية كل شيء أن يزولا
ونظم فى توديسها قصيدة فيها:

أودعكم يا آل بغداد والحشا على زفرات ما ينين من اللذع
وداع ضن^(١) لم يستقل وإنما

(١) يقال ضنى كرضى وضمنن: مرض.

فبئس البديل الشام منكم وأهله
ألا زودوني شربة ولو أنى
على أنهم قومي وبينهم ربي
قدرت إذا أفنيت دجلة بالجزع
وأنى لنا من ماء دجلة نغبة
وقال من أخرى:

لقد نصحتنى فى المقام بأرضكم
رجال ولكن رب نصح رب مضيع
فلا كان سيرى عنكم رأى ملحد
يقول بيباس من معاد ومرجع
أى: لا كان سيرى عنكم ذهاباً بلا إياب. أخرجه مخرج الدعاء.
